أبو الدرداء

أيُّ حكيم، كان..؟

بينما كانت جيوش الإسلام تضرب فى مناكب الأرض.. هادرة ظافرة.. كان يقيم بالمدينة فيلسوف عجيب.. وحكيم تتفجر الحكمة من جوانبه فى كلمات تناهت نَضْرَةً وبهاء..

وكان لا يفتأ يقول لمن حوله:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند باريكم، وأنماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزو عدوكم، فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم، وخيرٌ من الدراهم والدنانير»؟؟

وتَشْرئِبُّ أعناق الذين يُنصتون له.. ويسارعون بسؤاله:

«أىُّ شىء هو.. يا أبا الدَّرْدَاء»..؟؟

ويستأنف «أبو الدرداء» حديثه فيقول ووجهه يتألَّق تحت ضوء الإيمان والحكمة:

«ذِكْرُ الله..
و لَذِكْرُ الله أكبر»..!!

* * *

لم يكن هذا الحكيم العجيب يُبشر بفلسفة انعزالية ولم يكن بكلماته هذه يُبشر بالسَّلْبِية، ولا بالانسحاب من تبعات الدين الجديد.. تلك التبعات التى يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها..

أجل.. ماكان «أبو الدرداء» ذلك الرجل، وهو الذى حمل سيفه مجاهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم، حتى جاء نصر الله والفتح...

بَيْدَ أنه كان من ذلك الطراز الذى يجد نفسه فى وجودها الممتلئ الحى، كلما خلا إلى التأمُّل، وأوَى إلى محراب الحكمة، ونذر حياته لنشدان الحقيقة واليقين..؟؟

ولقد كان حكيمُ تلك الأيام العظيمة «أبو الدرداء» رضى الله عنه إنسانًا يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها..

وإذ قد آمن بالله وبرسوله إيمانًا وثيقًا، فقد آمن كذلك بأن هذا الإيمان بما يمليه عليه من واجبات وفهم، هو طريقه الأمثل والأوحد إلى الحقيقة..

وهكذا عكف على إيمانه مسلمًا إليه نفسه، وعلى حياته يصوغها وفْق هذا الإيمان فى عزم، ورُشد، وعظمة..

ومضى على الدَّرب حتى وصل.. وعلى الطريق حتى بلغ مُسْتوى الصدق الوثيق.. وحتى كان يأخذ مكانه العالى مع الصادقين تمامًا حين يُناجى ربه مُرتلا آيتَه..

﴿إن صلاتى ونُسُكى ومحْيَاى ومماتى لله رب العالمين﴾.

أجل.. لقد انتهى جهـاد «أبى الدرداء» ضـدَّ نفسه،ومـع نفسه إلى تلك الذروة العالية.. إلى ذلك التفوُّق البعيد.. إلى ذلك التفانى الرهبانى.. الذى جعل حياته - كلّ حياته.. لله رب العالمين..!!

* * *

والآن، تعالوا نقترب من الحكيم والقدّيس.. ألا تبصرون الضياء الذى يتلألأ حول جبينه..؟؟

ألا تشمُّون العبير الفواح القادم من ناحيته..؟؟

إنه ضياء الحكمة، وعبير الإيمان..

ولقد الْتقى الإيمان والحكمة فى هذا الرجل الأوَّاب لقاء سعيدًا، أىَّ سعيد...!!!

سُئلت أمه عن أفضل ما كان يحب من عمل.. فأجابت:

«التفكُّر والاعتبار»..

أجَلْ.. لقد وعَى تمامًا قول الله فى أكثر من آية:

﴿ فاعْتَبروا يَا أولى الأبْصار ﴾..

وكان هو يحُضّ إخوانه على التأمُّل والتفكر يقول لهم:

«تفكُّر ساعة خير من عبادة ليلة»..

لقد استولت العبادة والتأمل ونشدان الحقيقة على كل نفسه.. وكل حياته..

ويوم اقتنع بالإسلام دينًا، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الدين الكريم، كان تاجرًا ناجحًا من تجار المدينة النابهين، وكان قد قضى شطر حياته فى التجارة قبل أن يُسلم، بل وقبل أن يأتى الرسول والمسلمون إلى المدينة مُهاجرين..

بيد أنه لم يمض على إسلامه غير وقت وجيز حتى...

ولكن لِنَدَعْه هويكمل لنا الحديث:

«أسلمتُ مع النبى صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر..

«وأردتُ أن تجتمع لى العبادة والتجارة فلم يجتمعا..

«فرفضتُ التجارة وأقبلتُ على العبادة..

«وما يسرنى اليوم أن أبيع وأشترى فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار، حتى لو يكون حانوتى على باب المسجد...

«ألا إنى لا أقول لكم: إن الله حرّم البيع..

«ولكنى أحبُّ أن أكون من الذين لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذكر الله»..!!

أرأيتم كيف يتكلم فيوفى القَضيَّة حقها، وتُشرق الحكمة والصدق من خِلال كلماته..؟؟

إنه يُسارع قبل أن نسأله: وهل حرم الله التجارة ياأبا الدرداء...؟؟

يسارع فَينفُض عن خواطرنا هذا التساؤل، ويشير إلى الهدف الأسمى الذى كان ينشده، ومن أجله ترك التجارة برغم نجاحه فيها..

لقد كان رجلاً ينشد تخصصًا روحيًّا وتفوّقًا يرنو إلى أقصى درجات الكمال الميسور لبنى الإنسان..

لقد أراد العبادة كمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق فى جلاله، والحقيقة فى مَشرِقها، ولو أرادها مجرد تكاليف تُؤَدَّى، ومحظورات تُترك، لاستطاع أن يجمع بينها وبين تجارته وأعماله...

فكم من تُجّارٍ صالحين.. وكم من صالحين تُجَّار..

ولقد كان مِنْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم تُلْهِهِم تجارتُهم ولا بيعُهم عن ذكر الله... بل اجتهدوا فى إنماء تجارتهم وأموالهم ليخدموا بها قضية الإسلام، ويكْفوا بها حاجات المسلمين...

ولكن منهج هؤلاء الأصحاب، لا يغمز منهج أبى الدرداء، كما أن منهجه لا يغمز منهجهم، فكل مُيَسَّرٌ لما خُلِق له..

وأبو الدرداء يُحِسُّ إحساساً صادقاً أنه خلِق لما نذرَ له حياته.. التخصُّص فى نُشدان الحقيقة بممارسة أقصى حالات التبتُّل وَفْقَ الإيمان الذى هداه إليه رَبه، ورَسولُه، والإسلام..

سموه إن شئتم تصوُّفاً..

ولكنه تصوُّف رَجُلٍ توفَّر له مِنْ فطنة المؤمن، وقُدرَة الفيلسوف، وتجربة المحارب، وفقه الصحابى، ما جعل تصوُّفه حركة حيّةً فى بناء الروح، لا مجرد ظلال صالحة لهذا البناء..!!

أجَلْ..

ذلكم هو أبو الدَّرداء، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلميذه..

وذلكم هو أبو الدرداء، القدِّيس، والحكيم..

رجل دفع الدنيا بكلتا راحَتَيْه، وذادها بصدره..

رجل عكَف على نفسه حتى صقلها وزكاها، وحتى صارت مرآة صافية انعكسَ عليها من الحكمة، والصواب، والخير، ما جعل من أبى الدرداء معلماً عظيماً وحكيماً قويماً..

سعداءُ، أولئك الذين يُقبلون عليه، ويُصْغون إليه..

ألا تعالوا نقترب من حكمته يا أولِى الألباب..

* * *

ولنبدأ بفلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباهجها وزُخرفها..

إنه متأثر حتى أعماق روحه بآيات القرآن الرادعة عن:

﴿الَّذى جَمَع مالاً وعدَّدَه.. يحسَبُ أنَّ مالَهُ أخلَدَه﴾..

ومتأثر حتى أعماق روحه بقول الرسول:

«ما قلَّ وكَفَى، خيرٌ مما كَثُر وألهى»..

ويقول عليه السلام:

«تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر هَمِّه، فرَّق الله شَمْله، وجعل فقره بين عينيه..

«ومن كانت الآخرة أكبر هَمِّه جمع شمله، وجعل غناه فى قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع».

من أجل ذلك، كان يرثى لأولئك الذين وقعوا أسْرَى طموح الثروة ويقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من شَتات القلب..

سُئِل:

وما شَتاتُ القلب يا أبا الدرداء...؟؟

فأجاب:

أن يكون لى فى كل وادٍ مال»...!!!

وهو يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها... فذلك هو الامتلاك الحقيقى لها... أما الجرى وراء أطماعها التى تؤذن بانتهاء، فذلك شرُّ ألوان العبودية والرِّقّ

هنالك يقول:

«من لم يكن غنيًّا عن الدنيا، فلا دُنيا له»

والمال عنده وسيلة للعيش القنوع المعتدل، ليس غير.

ومن ثم فإن على الناس أن يأخذوه من حلال، وأن يكسبوه فى رفْق واعتدال، لا فى جشع وتهالُك..

فهو يقول:

«لا تأكل إلا طيبًا..

ولا تكسب إلا طيبًا..

ولا تُدخِل بيتك إلا طيبًا».

ويكتب لصاحب له فيقول:

«.. أما بعد، فلستَ فى شىء من عَرَضِ الدنيا، إلا وقد كان لغيرك قَبْلَك.. وهو صائر لغيرك بعدَك.. وليس لك منه إلا ماقدَّمتَ لنفسك.. فآثِرْها على مَنْ

تجمع له المال من ولَدِك ليكون له إرْثًا، فأنت إنما تجمع لواحد من اثنين:

«إما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله؛ فيسعد بما شَقيتَ به..

«وإما ولد عاص، يعمل فيه بمعصية الله، فتشقى بما جمعتَ له..

«فَثِقْ لهم بما عند الله من رزق، وانْجُ بنفسك»..!

كانت الدنيا كلها فى عين أبى الدرداء مجرد عارية..

عندما فُتحت «قبرص» وحُمِلَتْ غنائم الحرب إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكى.. واقتربوا دهِشين يسألونه، وتولَّى توجيه السؤال إليه «جُبَير بن نفير»:

قال له:

«يا أبا الدرداء، ما يبكيك فى يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله»..؟؟

فأجاب أبو الدرداء فى حكمة بالغة وفهم عميق:

«وَيْحَكَ ياجُبَير..

«ما أهْوَنَ الخلْق على الله إذا هم تركوا أمره..

«بينما هى أمة قاهرة، ظاهرة، لها المُلك، تركَتْ أمر الله، فصارت إلى ما ترى»..!!

أجَلْ..

وبهذا كان يُعلل الانهيار السريع الذى تُلْحقه جيوش الإسلام بالبلاد المفتوحة.. إفلاس تلك البلاد من روحانية صادقة تَعصِمُها، ودين صحيح يصلها بالله..

ومن هنا أيضًا، كان يخشى على المسلمين أيامًا تنحلُّ فيها عُرَى الإيمان، وتضعُف روابطهم بالله، وبالحق، وبالصلاح، فتنتقل العارية من أيديهم، بنفس السهولة التى انتقلت بها من قبل إليهم..!!

* * *

وكما كانت الدنيا بأسرها مجرد عارية فى يقينه، كذلك كانت جسرًا إلى حياة أبقى وأروع..

دخل عليه أصحابه يعودونه وهو مريض، فوجدوه نائمًا على فراش من جلد..

فقالوا له: «لو شئت كان لك فراش أطيب وأنعم..»

فأجابهم وهو يشير بسبَّابته، وبريق عينيه صوب الأمام البعيد:

«إن دارنا هُناك..

«لها نجمع.. وإليها نرجع..

«نَظْعَنُ إليها.. ونعملُ لها»..!

وهذه النظرة إلى الدنيا ليست عند أبي الدرداء وجهة نظر فحسب بل ومنهج حياة كذلك..

خطب يزيد بن معاوية ابنته «الدَّرْداء» فردَّه، ولم يَقْبل خطبته. ثم خطبها واحد من فقراء المسلمين وصالحيهم، فزوجها أبو الدرداء منه.

وعجب الناس لهذا التصرُّف، فعلَّمهم أبو الدرداء قائلا:

«ما ظنُّكم بالدَّرْداء إذا قام على رأسها الخدَم والخِصْيا وبهَرها زُخرف القصور..

«أين دِينها منها يومئذ»..؟؟!!

هذا حكيم قويم النفس، ذكيُّ الفؤاد..

وهو يرفُض من الدنيا ومن متاعها كل مايشُدُّ النفس إليها، ويُوَلّه القلب بها..

وهو بهذا لا يهرب من السعادة بل يهرب إليها..

فالسعادة الحقة عنده هى أن تمتلك الدنيا، لا أن تمتلكك الدنيا. وكلما وقفت مطالب الناس فى الحياة عند حدود القناعة والاعتدال وكلما أدركوا حقيقة الدنيا كجسر يعبرون عليه إلى دار القرار والمآل والخلود، كلما صنعوا هذا، كان نصيبهم من السعادة الحقة أوْفى وأعظم..

وإنه ليقول:

«ليس الخير أن يكثُر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظُم حِلْمُك، ويكثُر عِلمك، وأن تُبارى الناس فى عبادة الله تعالى»..

وفى خلافة عثمان رضى الله عنه، وكان معاوية أميرًا على الشام نزل - أبو الدرداء - على رغبة الخليفة فى أن يَلِيَ القضاء..

وهُناك فى الشام وقف بالمرصاد لجميع الذين أغْرَتْهُم مباهج الدنيا، وراح يُذكّر بمنهج الرسول فى حياته، وزهده، وبمنهج الرَّعيل الأول من الشهداء والصِّدِّيقين..

وكانت الشام يومئذٍ حاضرةً تموج بالمباهج والنعيم..

وكأن أهلها ضاقوا ذرعًا بهذا الذى ينغّص عليهم بمواعظه متاعهم ودنياهم...

فجمعهم أبو الدرداء، وقام فيهم خطيبًا:

«يا أهل الشام..

«أنتم الإخوان فى الدين، والجيرانُ فى الدار، والأنصار على الأعداء..

«ولكن مالى أراكم لا تَسْتحيون..؟؟

«تجمعون ما لا تأكلون..

«وتبنون ما لا تسْكُنون..

«وترجُون ما لا تبلُغون..

«قد كانت القرون من قبلكم يجمعون، فيوعون..

«ويُؤَملون، فيُطيلون..

«ويبنون، فيوثقون..

«فأصبح جمعُهم بورًا..

«وأملُهم غرورًا..

«وبيُوتهم قبورًا..

«أولئك قوم عاد، مَلَئُوا ما بين عدن إلى عُمان أموالاً وأولادًا..».

ثم ارتسمت على شفتيه بسمة عريضة ساخرة، ولوّح بذراعه فى الجمع الذاهل، وصاح فى سخرية لافحة:

«مَنْ يشترى منى تَرِكة آل عاد بدرهمين»..؟!!

رجل باهر، رائع، مضىء، حكمته مؤمنة، ومشاعره وَرِعة، ومنطقه سديد ورشيد..!!

والعبادة عند «أبى الدرداء» ليست غرورًا ولا تَأَلِّيًا، إنما هى التماس للخير، وتعرُّض لرحمة الله، وضراعةٌ دائمة تذكِّر الإنسان بضعفه وبفضل ربه عليه:

إنه يقول:

«التمسوا الخير دهركم كله...

وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نَفَحَات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده..

«وسلوا الله أن يستُرَ عَوْراتكم، ويُؤَمِّنْ رَوْعاتكم»..

كان ذلك الحكيم مفتوح العينين دائمًا على غرور العبادة، يحذِّر منه الناس.

هذا الغرور الذى يصيب بعض الضعاف فى إيمانهم حين يأخذهم الزهو بعبادتهم، فَيَتألَّوْنَ بها على الآخرين ويُدِلُّون..

فلنستمع له يقول:

«مثقال ذرَّة من بِرٍّ صاحب تقوى ويقين، أرجح وأفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترِّين»...

ويقول أيضًا:

«لا تُكلِّفوا الناس ما لم يُكلَّفوا..

ولا تُحَاسِبوهم دون ربِّهم..

عليكم أنفسكم، فإن من تتبَّع ما يرى فى الناس يَطُلْ حُزْنه».. !!

إنه لا يريد للعابد مهما يَعْلُ فى العبادة شأوُهُ أن يُجَرِّدْ من نفسه «دَيَّانًا» تجاه العباد.

عليه أن يحمد الله على توفيقه، وأن يُعَاون بدعائه وبنبل مشاعره ونواياه أولئك الذين لم يدركوا مثل هذا التوفيق.

هل تعرفون حكمة أنضر وأبهى من حكمة هذا الحكيم..؟؟

يحدثنا صاحبه «أبو قلابة» فيقول:

«مرّ «أبو الدرداء» يومًا على رجل قد أصاب ذنبًا، والناس يسبُّونه، فنهاهم وقال: أرأيتم لو وجدتموه فى حفرة.. ألَمْ تكونوا مُخْرجيه منها..؟

قالوا: بلى..

قال: فلا تسبُّوه إذن، واحمدوا الله الذى عافاكم.

قالوا: أفلا تبغضه..؟

قال: إنما أُبغضُ عمله، فإذا تركه فهو أخى»..!

* * *

وإذا كان هذا أحد وجهى العبادة عند «أبى الدرداء»، فإن وجهها الآخر هو العلم والمعرفة..

إن «أبا الدرداء» يقدس العلم تقديسًا بعيدًا.. يقدسه كحكيم، ويقدسه كعابد، فيقول:

«لا يكُون أحدكم تقيًّا حتى يكُون عالمًا..

ولن يكُون بالعلم جميلا، حتى يكُون به عاملا».

أجلْ...

فالعلم عنده فهم، وسلوك.. معرفة، ومنهج.. فكرة، وحياة..

ولأن تقديسه هذا تقديس رجل حكيم، نراه ينادى بأن المعلم كالمتعلم كِلاهما سواء فى الفضل، والمكانة، والمثوبة...

ويرى أن عظمة الحياة منوطةٌ بالعلم الخيِّر قبل أى شىء سواه..

هاهو ذا يقول:

«ما لى أرى علماءكم يذهبون، وجُهّالكم لا يتعلمون؟؟ ألاَ إن مُعَلّم الخير والمتعلِّم فى الأجر سواء.. ولا خير فى سائر الناس بعدهما»...

ويقول أيضًا:

«الناس ثلاثة..

عالم..

ومتعلم..

والثالث هَمَج لا خير فيه».

وكما رأينا من قبل، لا ينفصل العلم فى حكمة أبى الدرداء رضى الله عنه عن العمل.

يقول:

«إن أخشى ما أخشاه على نفسى أن يُقال لى يوم القيامة على رءوس الخلائق: ياعُويمر، هل علمت؟؟

فأقول: نعم...

فيُقالُ لى: فماذا عَمِلتَ فيما عَلِمت».؟؟

وكان يُجِلُّ العلماء العاملين ويوقرهم توقيرًا كبيرًا، بل كان يدعو ربه ويقول:

«اللهمَّ إنى أعوذ بك أن تلعَننى قلوب العلماء...»

قيل له:

وكيف تلعنك قلوبهم؟

قال رضى الله عنه:

«تكرهنى»...!

أرأيتم...؟؟

إنه يرى فى كراهية العالِم لَعْنة لا يُطيقها... ومن ثَمَّ فهو يضرع إلى ربه أن يُعيذه منها...

وتستوصى حكمة «أبى الدرداء» بالإخاء خيرًا، وتبنى علاقة الإنسان بالإنسان على أساس من واقع الطبيعة الإنسانية ذاتها، فيقول:

«مُعَاتبة الأخ خيرٌ لك من فقْدِه، ومَنْ لَك بأخيك كله..؟

«أَعْطِ أخاك ولِنْ له..

«ولا تُطع فيه حاسدًا، فتكون مثله..

«غدًا يأتيك الموت، فيكفيك فَقْدُه...

وكيف تبكيه بعد الموت، وفى الحياة ما كنت أدَّيتَ حقه»...؟

ومُرَاقبة الله فى عباده قاعدة صُلْبة يبنى عليها «أبو الدرداء» حقوق الإخاء...

يقول رضى الله عنه وأرضاه:

«إنى أبغض أن أظلم أحدًا.. ولكنى أُبغض أكثر وأكثر، أن أظلم مَنْ لا يستعينُ عليَّ إلا بالله العليِّ الكبير»...!!

يالَعَظَمة نفسك، وإشراق روحك يا أبا الدرداء..!!

إنه يحذر الناس من خداع الوهم، حين يظنُّون أن المستضعَفِين العُزَّل أقرب منالاً من أيديهم، ومن بأسهم..!!

ويذكِّرهم أن هؤلاء فى ضعفهم يملكُون قوة ماحقة حين يتوسَّلون إلى الله عزَّ وجلَّ بِعَجزهم، ويطرحون بين يديه قضيتهم، وهوانهم على الناس...!!

* * *

هذا هو - أبو الدرداء الحكيم...!!

هذا هو - أبو الدرداء الزاهد، العَابد، الأوَّاب...

هذا هو - أبو الدرداء الذى كان إذا أطْرَى الناسُ تُقاةُ، وسألوه الدعاء، أجابهم فى تواضع وثيق قائلا:

«لا أُحْسِنُ السِّباحة... وأخافُ الغرَق»...!!!

* * *

كل هذا، ولا تحسن السباحة يا أبا الدرداء..؟؟

ولكن أىُّ عجب، وأنت تربية الرسول عليه الصلاة والسلام... وتلميذ القرآن... وابن الإسلام الأوَّل... وصاحب أبى بكر وعمر، وبقيَّة الرجال...!؟